القَرَسْطُونُ وما إليه

الأستاذ عبد القادر زمامة

لأدري أين رأيتُ هذه الكلمة أول مرة... ولا أدري متى سمعتُ الحديث عنها بين الزملاء الباحثين والدارسين. لكنني كنتُ مهتماً بها... فأخَذَتْ حيزاً من الذاكرة، وسطوراً من المذكرة.

وكانت بداية البحث عنها في المظانّ والمعاجم ذات مُصادفة طريفة... حيث إن الأستاذ البحَّاثة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب أهداني كتابه الجيّد المعنى والمبنى: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية. فوجدتُه يترجم هناك لأعلام بيت الحكمة، ومن جملتهم شخص يُسَمَّى: إسماعيل بن يوسف، ويُلقَّب: بالطَّلاَّء[1] المنجِّم.... وكانت الترجمة مشوّقة وجذَّابة لهذا العالم القيرواني، الذي تعلّم بالعراق، وظهرت مواهبه العلمية بتونس، وتوفي مهاجراً بالأندلس....

ولفت نظري ان مؤلف الورقات يجعل من مصادر ترجمة الطَّلاَّء المنجِّم كتاب: طبقات النحويين واللغويين لمؤلفه الشهير: محمد بن الحسن الزُّبيدي الأندلسي ٣٧٩ هـ / ٩٨٩م.

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية. القسم الأول ص ٢٥٣. مكتبة المنار تونس ١٩٦٥م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبالرجوع إلى كتاب: «الطبقات» وجدتُه يترجم لهذا العَلَم، ترجمة متوسطة، ولكنها خالية من تاريخ الميلاد، وتاريخ الوفاة...!

وأطرفُ مافي هذه الترجمة، بالنسبة للبحث عن مدلول كلمة: «القرسطون» مايحكيه الزُّبيدي عن ظروف تعلم الطَّلاَّء المنجِّم بالعراق... قائلاً: «كان أهل العلم بصناعة الطِّلاء بالعراق يضنّون بصناعتهم. وكان إسماعيل بن يوسف قد لازمهم وخَدَمهم، فكانوا يُخرجون إليه، وإلى أصحابه من التلاميذ العقاقير للدَّقِّ مختلطةً... فتحيَّل إسماعيل بن يوسف للمبيت في خزانة العقاقير... وأعدَّ قرسطوناً صغيراً فبات ليلته تلك يزن كلَّ عِقِّير هناك. فلما كان من الغد أخرجت إليهم العقاقير للدَّقّ والطِّلاء، واستعملوا ذلك... ثم رجع إسماعيل بن يوسف من اللَّيلة القابلة. فعاود وزن عقاقير الخزانة فعرف مانقص من كل عِقِّير منها. فعلم أنه المأخوذ للاستعمال. في ذلك النهار..! فكتب ذلك كله ثم استعمله. فقامت له الصناعةُ...!(٢)».

وقبل أن ندخل في تفسير مدلول كلمة القرسطون الواردة في هذا النص المفيد... ينبغي أن نشير إلى ماأفادنا به المرحوم حسن حسني عبد الوهاب عن: صنعة الطِّلاء التي ذهب إسماعيل بن يوسف إلى العراق ليتعلمها... فقد شرحها في النص المشار إليه من الورقات قائلا:

«وما كان يُعْرف بالطِّلاء قديماً هو وسائل تجميل وجوه النِّساء... وأبدانهن... وهي تطريتها بالأدْهان والعقاقير المناسبة... وهو مايسميه الافرنج الآن: (الماكياج)». وظاهر من فحْوى نصّ الزبيدي الأندلسي المكتوب خلال القرن الرابع الهجري. والعاشر الميلادي أن هذه الكلمة:

(٢) طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ص ٢٦٣. ط الأولى. القاهرة ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤م. [ص ٢٤١ ط ٢، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م/ المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قرسطون. كانت معروفة في كل من: العراق. وإفريقية. والأندلس. وأن هذه الأداة الحضارية كانت مستعملة للوزن... وأن الطَّلاَّء المنجِّم... وزن بها ماوجده هناك في الخزانة من عقاقير....! وأن القرسطون. كان صغيراً....!!!.

وللزبيدي الأندلسي اللّغوي كتب أخرى غير الطبقات. من جملتها كتاب: «لحن العامة» الذي حاول فيه كما حاول سابقوه ولاحقوه أن يصححوا أخطاءً لغوية انتشرت في عصرهم... فنجده يقول بخصوص هذه الكلمة: «... ويقولون للميزان العظيم: (القلسطون)، قال محمد: والصواب (قرسطون).. وهي شامية...!!»(٣).

وإذا صحَّ لنا من جهتَي البحث اللغوي والحضاري أن نستنتج من نصّي الزُّبيدي الأندلسي اللغوي فإننا نستنتج مايأتي:

– في كتاب الطبقات. وصف القرسطون بأنه صغير لوزن العقاقير....!

– وفي كتاب لحن العامة وصف القرسطون بأنه عظيم....! مع تصحيح لفظي...! فالزُّبيدي – فيما يظهر– يجعل مفهوم كلمة: القرسطون هو الميزان المتعدد الأحجام...! يكون صغيراً...! كما يكون عظيماً...! والضرورة تدعو إلى وزن الأشياء الدقيقة... كما تدعو إلى وزن الأشياء ذات الأثقال والأحجام المختلفة...!

– فهناك قرسطون صغير للأولى..!

– وهناك قرسطون عظيم للثانية..!

---

(٣) لحن العامة: تحقيق عبد العزيز مطر. ص ١٠٠. ط. الكويت ١٩٦٨م ويعني بقوله: قال محمد: نفسه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن المعلوم – تاريخياً – أن الزُّبيديَّ اللغوي الأندلسي مؤلف كتابي: الطبقات. ولحن العامة. هو من أشهر تلاميذ ضيف الخلافة الأموية في الأندلس أبي علي القالي الإمام الشهير الذي أملى كتابه: (الأمالي) في مسجد «الزهراء»، شقيقة «قرطبة»، كما أنه ألف كتابه: (البارع في اللُّغة) وهو معجم حذا فيه حذو كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي... فمادَّتُهُ من مادَّته. ومنهاجُه من منهاجه وطريقة ترتيبه الكلمات من طريقته...!

والقسم الباقي لنا من هذا المعجم اللغوي الذي أُلّف في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري... له قيمة لغوية وتاريخية لامجال لتجاهلها...!

ومن هذا القسم نقتبس هذا النصّ الذي نقله القاليُّ عن الخليل قائلاً(٤):

«...القَرَسْطون» بفتح القاف والراء. وسكون السين. وضم الطاء هو: «القبَّانُ» بلغة أهل الشام. وهو القلسطون باللام»

فأبو علي القالي في نصِّه هذا المنقول عن الخليل بن أحمد يُبرز حقيقتين:

- يفسّر القرسطون بالقَبَّان...!
- ويصحّح الصيغتين: القَرَسْطون بالراء..! والقَلَسْطُون باللَّام..!

وإذا تجاوزنا ما أفادنا به الزُّبيدي الأندلسيُّ وما أفادنا به أستاذُهُ أبو عليّ القالي الذي نقل عن الخليل تفسير: القَرَسْطُون والقَلَسْطون بالقبّان...! إلى لُغَويّ آخر هو أبو عبد الله محمد بن أحمد اللّخمي المعْروف بابن هشام

(٤) االبارع في اللغة. قسم حققه هاشم الطعان. ص ٥٥٤ الطبعة الأولى بيروت ١٩٤٥م.

[انظر ماجاء في كتاب العين ٥: ٢٤٩/ المجلة]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللخمي ٥٧٧ هـ/ ١١٨١م . مؤلف كتاب: (المدخل إلى تقويم اللّسان، وتعليم البيان) فإننا نجده يقول في الموضوع:

«.... ويقولون للميزان العظيم قَلَسْطون.والصواب: قَرَسْطون... وهي لغة شاميّة....!(٥)»

وإلى جانب نص ابن هشام اللّخمي. نجد شارح مقامات الحريري أبا العباس أحمد بن عبد المؤمن القَيْسي الشريشي ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٢م عند شرحه للمقامة الثانية والأربعين النَّجرانية التي جاء فيها الحريريُّ بلغز منظوم من خمسة أبيات في نوع من الموازين. كان يسمَّى عندهم الطيّار...!! يقول الشريشي:

«... الطيَّارُ: ميزانٌ معروفٌ عندهم يرجّحه أيسر شيء.. فلخفّته سُمي: الطيَّار»

«وقيل الطيار: ميزان الدراهم المعروف عندهم: بالقارسطون!!!(٦)»

ولا يخفى مافي هذا النص من أشياء مستغربة:

١) القارسطون بمدّ القاف مع أننا نجده في النصوص الأخرى بدون هذا المدّ...!

٢) ماذكره عن الطيار. وكونه يرجحه أيسرُ شيءٍ..!!

٣) ماحكاه بصيغة: قيل. من كونه ميزاناً للدراهم معروفاً بالقارسطون...!!

فالشريشي الذي عاش في القرن السابع الهجري يحكي بصيغة قيل:

(٥) المدخل إلى تقويم اللسان ص: ٣٢٨. ط. مدريد ١٩٩٢م تحقيق JOSEPEREZ LAZARO.

(٦) شرح المقامات ج ٤ ص ١١٣. ط. القاهرة ١٩٥٣ ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان بعض الناس في عصره يطلق كلمة: الطيار. على ميزان الدراهم المعروف بالقارسطون...! ويمكن أن يفسر هذا بأنه تطور حضاري يطرأ على الاصطلاحات والمفاهيم والأدوات المستعملة بكثرة في المدن والأمصار...! لعدة عوامل طوال قرون.

أما صلاح الدين خليل بن ايْبَك الصفدي ٧٦٤ هـ/ ١٣٩٢م في كتابه الجيّد: (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) فإنه يقول:

«ويقولون للميزان العظيم: القلسطون. والصواب قرسطون.. وهي شامية...!!!(٧)»

فالصفدي في القرن الثامن الهجري يصحح الكلمة كما فعل سابقُوه... ويجعل القرسطون ميزاناً عظيماً...!!!

ولعله من المناسب هنا ونحن نجول في النصوص القديمة بحثاً عن كلمة: قرسطون... أن نشير إلى أن أبا عثمان الجاحظ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨م كان على علم بالقَرَسْطُون. والكيفية التي يزن بها الأشياء. وقد ذكره في مؤلفاته – فيما أذكر – عدة مرات... وأكتفي الآن بما أشار إليه في رسالته البديعة المسماة «رسالة التَّربيع والتدوير إذ قال مخاطباً خَصْمَه:

«وخبرْني عن القَرَسْطون. كيف أخْرجَ أحدُ رأسيْه ثلثمائَة رطلٍ. زاد ذلك أم نقص،!! ووزنُ جميعه ثلاثون رطلاً... زاد ذلك أم نقص...!!(٨)»

هذه بعضُ المفاهيم التي رصدها قديماً لغويون... وعلماء وأدباء. عرضناها باقتضاب... لكلمة: قرسطون...

وحيث إن أدوات الحضارة تناولتها عدةُ جهات لتعلّق أحكام بها...

(٧) ص ٤٢٧. ط القاهرة ١٩٨٧م.

(٨) رسالة التربيع والتدوير. من (رسائل الجاحظ) جمعها حسن السندوبي ص ٢٣٣ ط القاهرة ١٩٣٣ م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاسيما منها أدوات المكاييل والموازين... فإننا نشير هنا إلى أن أبا العباس أحمد بن يحيى الونشريشي ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م الفقيه النوازلي جمع في كتابه الكبير: «المعيار المُعرِب، والجامع المُغْرِب، عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمَغْرِب» عدة قضايا ونوازل ترجع لعدة أبواب. ومنها وزن الدراهم المستعملة قديماً.... فنجده يستعمل الكلمة هكذا: الميزان المعروف بالقلسطون[٩]..!

فالونشريشي. وهو من رجال القرن التاسع والعاشر الهجريَيْن كان يعلم وقد عاش في تلمسان وفاس واطلع على عدة كتب في الفقه والنوازل والحِسْبة... أن الدراهم كانتْ توزن بالميزان المعروف بالقلسطون...! باللام...

وهذا الذي ذكره المؤلف الونشريشي في كتاب: «المعيار» من كون القلسطون. ميزاناً معروفاً لوزن الدراهم...! رأيناه في نصوص سابقة.. كما رأينا مَنْ يفسّر القرسطون بالقبان..! ومَن يجعل مِن القرسطون صغيراً. لوزن العقاقير... وكبيراً لوزن الأشياء الثقيلة...!

وغنيٌّ عن البيان أن كلا من كلمتيْ:

– القرسطون....

– والقبّان....

هما من الكلمات المُعَرَّبة المستعملة منذ العصور الأولى للحضارة الإسلامية في المدن والأمصار شرقاً وغرباً...!

– وليس من هدفنا الآن أن ندخل في تفصيل أصول كلّ من الكلمتيْن في لُغتها الأصلية....!!

– كما أنه ليس من هدفنا أن نذكر هنا ماذكرتْهُ معاجمُنا على

(٩) المعيار المُعْرب ج ٥، ص (١٤– ١٥) ط بيروت. دار الغرب الاسلامي...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اختلاف مستوياتها وعصورها...! ولا أن نناقشها...! لا في الدالّ ولا في المدلول...!!!

إلا أننا نشير في ختام هذا المقال إلى أشياء منها:

١) من المستغرب أن أبا منصور الجواليقي صاحب كتاب: (المُعَرَّب) لايذكر ضمن المفردات التي شرحها كلمة القرسطون، وإنما يذكر كلمة القبَّان... على أنها من الفارسيّ المُعَرَّب(١٠).

٢) أبو منصور الثعالبي يقول في كتاب (فقه اللغة) «القرسطون: القبان..» في الفصل الذي جَعَلَهُ لما حاضر به، مما نسبه بعضُ الأئمة إلى اللغة الرُّومية(١١)..!!!

٣) السيوطيّ في كتاب المُزْهِر (ج١ ص، ٢٧٦) يجعلُ كلمة: القرصطون بالصاد... في جملة الكلمات المعرَّبة عن الرُّومية...!

٤) القبّان: على أنه ميزان معروف بذراعه الحديدية الطويلة، المُجزّأة إلى أجزاء ذات أرقام... توزن به الأشياء الثقيلة في الأسواق، ودور التجارة، مازال معروفاً، ويسمّى- في بعض الجهات- باسم الرُمَّانة، والقبَّاني- في بعض الجهات- هو الوزّان الذي يزن للناس أشياء هم بأجر معيّن.

٥) أمَّا القَرَسْطون... على أنه بهذا الاسْم: صغير..! أو كبير..! توزن به العقاقير... أو الدَّراهم.... فليس له ذكر الآن- فيما أعلم- والله أعْلَمُ...!

---

(١٠) المعرَّب للجواليقي ص ٢٧٥. أعيد طبعه بالأفست (طهران ١٩٦٦ م).

(١١) فقه اللغة ص ٣١٨. ط. كاثوليكية بيروت.[ص ٤٥٥/ ط الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٢/ المجلة] ونجدُه في ثمار القلوب ص ١٩٠. القاهرة ١٩٠٨ م يقول: وللروم: الطب، والتنجيم، والقرسطون...!! [ثمار القلوب، ط دمشق ١: ٣٨١/ المجلة].

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net